دراسات قَدْمُس (2)

الإبيونيون
وورق بن نوفل والإسلام

زياد منى

قَدْمُس للنشر والتوزيع

دراسات قدمس (2)

الأبيونيون
وورقة بن نوفل والإسلام

الأبيونون وورقة ابن نوفل
تأليف: زياد منى
تصميم الغلاف: زياد منى
إخراج: محمد غيث الحاج حسين
الطَّبعة الأولى: (2001 م)

التوزيع في سوريَة: قَدْمُس للنشر والتوزيع
شارع ميسلون، دار المهندسين (0905)، الفردوس
ص ب (6177)
دمشق، سوريَة
هاتف: (+11 963) 9836 222 برّاق: 7226 224
جوّال: (+94 0 963) 167 517
بريد إلكتروني ‹cadmus@net.sy›؛ ‹books@cadmusbooks.net›
التوزيع في محافظة اللاذقية: مكتبة بالميرا
هاتف: (+41 963) 468975

التوزيع في العالم: شركةُ قَدْمُس للنشر والتوزيع (ش م م)
ص ب (6435 / 113)؛ شارع الحمرا ، بناء رسامني
بيروت، لبنان
هاتف : (+1 961) 054 750، برّاق: 053 750
جوّال : (+3 0 961) 512 620؛ 411 722
بريد إلكتروني: ‹daramwaj@inco.com.lb›

التوزيع في الأردن: الأهلية للنشر والتوزيع
وسط البلد، خلف مطعم القدس؛ ص ب (7772) عمّان 11118، الأردن
هاتف: (+6 962) 8688 463؛ برّاق: 7445 465
بريد إلكتروني: ‹alahlia@nets.jo›

رقم تأشيرة الرقابة (47145) تاريخ (24/ 2/ 2000 م)
لقراءة إصدارات الدار على (الإنترنت) انظر: ‹http://library.ajeeb.com/cadmus›
لابتياع نسخ إلكترونية من هذا الكتاب، انظر ‹http://www.arabicbook.com›
إنّ الآراءَ الواردةَ في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار.

زياد منى

الأبيونيون
وورقة بن نوفل والإسلام

الإهداء

إلى أخي المعتصم
في ذكرى رحيله الأولى
أبا سيّار، فقداك لا يعوضه العالم
ولكن لي بعض العزاء في حقيقة أننا سنلتقي يوماً

زياد

تنويه

أود لفت نظر القارئ العربي إلى أن الجزء الأكبر من هذا الإسهام كتبته منذ فترة عندما كنت مقيماً في ألمانيا. ففي منتصف الثمانينيات اتصل بي بعض الأصدقاء وأشاروا علي بضرورة قراءة كتب "أبو موسى الحريري" وعلى رأسها (قس ونبي) بسبب أهميتها القصوى. واجهت صعوبات جمة في الحصول على نسخ منها، لكنني تمكنت في نهاية الأمر من تحصيلها من زميلات وزملاء في لندن والولايات المتحدة. وعندما بدأت في قراءة الكتب تلك، فوجئت فعلاً بكَمّ المغالطات التي تحويه، وانحرافها المذهل عن الحقائق التاريخية المعروفة لكل متخصص. عندها جلست وكتبت مراجعة للمؤلفات تلك، مع التركيز على الكتاب آنف الذكر وأرسلتها إلى المجلات والصحف اللبنانية والعربية الصادرة في أوروبا التي كنت أنشر أبحاثي فيها، لكن دون جدوى. فكل منها وجد

أعذاراً لعدم النشر، لكنني لم أفهم أية منها. ومرت الأيام ونسيت الموضوع. وعندما حضرت إلى دمشق لاستلام إدارة قَدْمُس تذكرت المخطوطة فعملت على إعادة صياغتها وإضافة مواد أخرى إليها، لكني لم أحذف أية كلمة من الأصل، وها أنا أقدمها للقارئ العربي معتذراً عن اضطراري لإصدار إسهامي هذا من خلال دار النشر التي أديرها، لكن تقاعس أصحاب المجلات والدوريات لم يترك أمامي أي طريق آخر لمواجهة التضليلات والمغالطات اللاعلمية التي حوتها تلك المؤلفات. وأمل أن يسهم نشر عملي هذا في تذكير القراء بضرورة التروي في الحكم على كتابات تلبس رداء الموضوعية، لكنها في واقع الأمر إثارية وليس أكثر من ذلك، وإن صيغت بأسلوب علمي.

زياد منى

دمشق في 15 تموز 2001 م

مدخل

لا ندري إن كانت قراءتنا هذه تأتي متأخرة، لكننا لم نسمع عن مؤلفات "أبو موسى الحريري!" إلا قبل فترة وجيزة ولم نحصل عليها إلا أخيراً. وعندما لفت انتباهنا العديد من الزملاء والأصدقاء إليها، تمكنا، رغم الصعوبات، من تحصيل المؤلفات تلك بمساعدة زملاء وأصدقاء يحترمون العلم وحرية الإطلاع والبحث العلمي، وإليهم نتقدم بجزيل شكرنا وامتناننا.

ولأنه ليس من الأمور السهلة استعراض مختلف الموضوعات التي تناولها المؤلِّف في كتيبنا هذا، سنركز حوارنا ونقضنا أطروحاته على بعض محتويات أكثر المؤلفات لفتاً للأنظار، أي: (قسّ ونبيّ)، لكن دون تجاهل مسائل وردت في كتبه الأخرى.

يذهب ملخص الكتاب إلى أن النبي العربي تعلم على يد ورقة بن نوفل القس النصراني[1] رئيس كنيسة مكة [كذا] وأن القرآن يضم،

ضمن نصوص أخرى، ترجمة بتصرف لمقاطع محددة من «الإنجيل العبراني» الذي كان في حوزته! ويُعَرِّف المؤلِّف الإنجيل العبراني بأنه كتاب طائفة اليهود-المسيحيين المعروفين باسم (الإبيونيون).

كما يرى "أبو موسى الحريري" بأن الإنجيل المشار إليه في القرآن هو نفسه إنجيل متى، حيث قدم مقارنات بين مقاطع محددة من الكتابين، تثبت، وفق رأيه، صحة استنتاجه، بل وإن القرآن يحوي أيضاً ترجمة مقاطع منه!

قبل البدء في مناقشة استنتاجات المؤلِّف، نود أن نسجل عليه أول مأخذ علمي ألا وهو وضع استنتاجاته في مطلع المؤلف وفي مدخل كل فصل وقسم، بدلاً من التزام المنهجية العلمية ووضعها في نهاية العمل، وهو الأمر المنطقي. فالاستنتاجات هي محصلة البحث، أي نتاج البحث. كما نأخذ عليه أسلوب الخطاب السياسي، في عمل وسمه بالعلمية.

ونظرا لتشعب الموضوعات والطروحات التي تحويها المؤلفات، سنقصر قراءتنا وتقصينا على موضوع تخصصنا، وسنعمل على بحث الأسس التي اعتمدت عليها استنتاجاته بدلاً من مناقشة كل مسألة طرحها. فحيثما سار الكاتب على منهجية البحث التاريخي، فسنسلك طريقه، ونرى إن كانت استنتاجاته صحيحة.

النقطة الرئيس الأولى التي اعتمدها الكاتب أساساً لاستنتاجاته هي هوية ديانة ورقة بن نوفل و«الكتاب العبري» حيث بذل في سبيل إثبات وجهة نظره مجهوداً ضمنه استنطاق كتابات الإخباريين العرب عن الموضوع، وتحليل بعض الآيات المكية، ثم حسم بأن المقصود بمصطلح (النصارى) الذين يذكرون في القرآن بشكل إيجابي،[2] هم طائفة أو جماعة (الإبيونيين)، ولنا عودة إلى ذلك.

أحد البراهين الأساس التي ساقها الكاتب دعماً لرأيه بخصوص ما رآه من دور لورقة بن نوفل، المقولة المنسوبة إليه في سيرة ابن اسحق، والتي جاءت تعقيباً على حديث النبي لزوجه بعدما جاءه الوحي، أي: «لئن كان هذا حقاً، يا خديجة، فإن محمداً لنبي هذه الأمة. وقد عرفتُ أنه كائن لهذه الأمة نبي منتظر هذا زمانه».[3] هنا يطرح الكاتب التساؤل التالي: «من أين لورقة هذا؟ كيف عرف مشيئة الله؟ أكان القسيسون في ذلك الزمان يدركون الغيب ومستقبلات الناس ولم يعد لهم اليوم ذلك»؟!

يجد "أبو موسى الحريري" في القول الذي تناقلته بعض أو معظم كتابات الإخباريين العرب بأن: «ورقة بن نوفل كان يُعِدّ محمداً لخلافته على كنيسة مكة»؟ دعماً لاستنتاجه.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى ربط الكاتب استنتاجه ذلك بأن التوراة التي كانت موجودة في جزيرة العرب إبان البعثة النبوية لم تضم سوى الأسفار الخمسة الأولى، أي التكوين والخروج والعدد واللاويين والتثنية، ويجد دعماً لذلك في أن القرآن لم يشر إلى أي من أنبياء بني إسرءيل[4] الواردة أسماؤهم في أسفار أخرى، لكننا سنعود لاحقاً إلى هذه المسألة.

وجهة نظرنا أن الباحث تجاهل الاحتمال الأقوى، ألا وهو ارتباط هذه المقولة المنسوبة إلى ورقة بما ورد في الآية (29) من سورة الفتح والآية السادسة من سورة الصفت والتي تشير إلى أن اسم النبي، أي محمد، يرد في التوراة، وأن الإنجيل يشير إليه بصيغة (أحمد). أي أن قناعة ورقة بن نوفل ترتكز إلى محتويات نسخة أو نسخ التوراة التي كانت موجودة في جزيرة العرب حينذاك، ومن ذلك ما يرد في سفر دانيال (11: 37) الذي ينقل تنبؤاً بالمخلص

حيث يرد في النسخة "الكنعانية" الأصلية مصطلح بصيغة ‹حمده› الذي يشترك في الجذر الثلاثي (حمد) مع الاسم (محمد) - علماً بأن الترجمة العربية التقليدية تشوه المعنى.

سنترك التعقيب على هذه المسألة الآن لأحد "علماء التوراة" الأوروبيين الذين بحثوا الموضوع، والذي لم يكن متعاطفاً مع العرب أو الإسلام بأي شكل من الأشكال. يقول ذلك العالم ما يأتي: «من الواضح أن اليهود فهموا، أن الكلمة ‹حمد› ومشتقاتها تشير، ضمن أمور أخرى، إلى أقدس الأقداس وإلى أكثر الأمور المرغوبة».(5) سنتوقف عند هذا، وسنكتفي بالقول أن "أبو موسى الحريري" الكاتب لم ينفذ فروضه المنزلية بالشكل المطلوب، وإن هذه المقارنة تعتبر مؤشراً قوياً على أن أسفاراً أخرى، بالإضافة إلى (الخماسية) كانت معروفة في جزيرة العرب إبان البعثة النبوية.

ننتقل الآن إلى النقطة الرئيس الثانية التي طرحها الكاتب ألا وهي قناعته بأن (الإبيونيين) هم النصارى المشار إليهم في القرآن، علماً بأنه يجزم بأنهم، وغيرهم من النصارى، وليس المسيحيين، هم الحنفاء. كما ويعرِّف بأن ‹اللوح محفوظ› المشار إليه في سورة البروج (الآية 22) بأنه هو ‹إنجيل الإبيونيين› [كذا]. وفي محاولة لدعم استنتاجاته هذه، قام باستعراض بعض ما أورده البحاثة عن تعاليم هذه الطائفة.

لنا على هذه الاستنتاجات مأخذ إذ كان عليه الالتزام بالمنهجية الصحيحة، وعرض كتابات الأبيونيين كما هي، بدلاً من الاعتماد على تحليلات كتاب آخرين.

ولكي نتفادى خلط الأمور بعضها ببعض، سنعوض هذه النقيصة في المؤلف موضع تقصينا بتقديم المقاطع المتوافرة من

‹إنجيل الإبيونيين› للقارئ، ولكي نمكنه أيضاً من متابعة المسألة وإزالة أي إبهام حول الموضوع. . . أي: «لأجل المعرفة، ليس إلا».

الإبيونيون (6)

لا تتوافر أية معلومات دقيقة عن هذه الطائفة "اليهودية-المسيحية" كما لا يعرف أي شيء عن إنجيلـ(ـها) سوى مقاطع غاية في القصر نقلها بعض آباء الكنيسة المعادين لهم أصلاً. ويرى أهل الاختصاص الذين بحثوا في الموضوع أن تاريخ نشوء هذه الطائفة يعود إلى القرن الثاني للميلاد حيث ترد أول إشارة لهم عند أحد آباء الكنيسة هو إرينيوس (175 م). وهناك اعتقاد بأن مقرهم الرئيس كان شرقي فلسطين. وبعد تحليل بعض المفردات والمصطلحات التي تتكرر فيما وصلنا من "إنجيلهم"، اقتنع العلماء بأن لغة ذلك الإنجيل الأصلية هي اليونانية، وليس الآرامية أو "العبرية". وقد بقيت هذه الطائفة الصغيرة قائمة حتى البعثة النبوية حيث دخل أتباعها الإسلام بعد الفتوحات.

بعد هذا العرض المقتضب، نقدم تالياً ترجمتنا للمقاطع المتوافرة

من ‹إنجيل الإبيونيين›، والتي استقيناها من المؤلفات المتخصصة المشار إليها في الحاشية.

إنجيل الإبيونيين – وفق إبيفانيوس[7]

1) وفي الإنجيل الذي بحوزتهم [أي الإبيونيين – ز. م.] والذي يسمى متَّى، فهو غير كامل، لكنه مزور ومشوه، والذي يطلقون عليه اسم ‹الإنجيل العبري›، يرد ما يلي: «لقد بدأ رجل معيناً اسمه يسوع بالدعوة واختارنا نحن،[8] وكان له في ذلك الوقت من العمر ثلاثون عاماً.[9] وعندما جاء إلى كفر ناحوم[10] دخل إلى منزل سمعان[11] الملقب أيضاً بطرس،[12] وفتح فمه وتكلم: عندما كنتُ أسير بمحاذاة بحيرة طبرية،[13] اخترتُ يوحنا ويعقوب ابني زبدي، وسمعان وأندراوس وتاديوس وسمعان الزعلوطي، ويهوذا العسكري،[14] وأنت متّى الذي كنت مسئولاً عن الضرائب اخترتك، وأنت تبعتني.[15] وسأعمل على أن تصيروا الإثني عشر رسولا شهادة لإسرءيل».[16]

2) و: « حدث أن يوحنا كان يقوم بالتعميد؛[17] وذهب إليه فريسيون وتم تعميدهم،[18] وكذلك كل القدس.[19] وكان يوحنا يرتدي رداء من وبر الجمل، وكان يتمنطق بحزام من الجلد، وكان غذاؤه، كما يقولون، عسل بري[20] ذو طعم مثل المن، والفطير في الزيت[21]». إنهم يريدون أن يبدلو بكلمة الحق الباطل حيث أنهم وضعوا بدل الجراد فطيراً.

3) ويبدأ الإنجيل عندهم كما يلي: «وحدث في أيام هِرودِس،[22] ملك "مقاطعة" يهوذا،[23] ‹في ظل الكاهن الأعظم قيافا›[24] أن جاء يوحنا "ما، وكان ذلك اسمه"، وقام بعمودية التوبة في نهر الأردن.[25] وقيل عنه إنه من سلالة القس هارون، ابن زكريا

وإليصاباط؛[26] وكان كل الناس يخرجون إليه».[27]

4) وبعد أن يسردوا كثيراً من الحديث، يواصلون القول: «وعندما تم تعميد الشعب،[28] جاء أيضاً يسوع وتم تعميده من قبل يوحنا.[29] وعندما خرج من الماء، انشقت السماء ورأى الروح القدس تهبط على هيئة حمامة ودخلت فيه.[30] و‹رَعَدَ› صوت من السماء وقال: أنت ابني الحبيب، وبك رضيت.[31] وأيضاً: وأنا اليوم ولدتُكَ.[32] وحدث على الفور أن نوراً ساطعاً حل بالمكان. وقيل، إنه عندما رأى يوحنا هذا، تحدث معه وسأله: من أنت أيها السيد؟ وحدث أيضاً أن ‹رَعَدَ› صوت إليه من السماء [قائلاً]: هذا هو ابني الحبيب وبه ارتضيت.[33] ويقال إن يوحنا سقط عندئذ خاراً أمامه وقال: أرجوك أيها السيد أن تعمدني. لكنه رفض ذلك وقال: أترك هذا، لأن به يتمم كل شيء».[34]

5) وهم ينفون أنه كان بشراً بسبب الكلمة التي تحدث بها القدوس عندما ظهر له: انظر، إن أمك وأخوتك يقفون في الخارج «من هي أمي ومن هم أخوتي؟ وأشار بيده إلى تلاميذه وقال: هؤلاء هم أخوتي وأمي وأخواتي الذين يعملون بمشيئة أبي».[35]

6) وهم يقولون إنه (أي يسوع المسيح) لم يخلق من أبانا الرب، ولكن مثل كبير الملائكة . . . وإنه يسيطر على الملائكة وكل مخلوقات العظيم، ويقولون كما يرد في إنجيلهم إنه «إني أتيت لأبطل تقديم الضحايا، وإذا لم تتوقفوا عن تقديم الضحايا، فلن يبرحكم الغضب».[36]

7) لكنهم يتركون كلمة الحق البينة والجلية من بقية الكلمات، وجعلوا التلاميذ يقولون: «أين تريدنا أن نحضر وجبة الفصح؟ عندئذ أجابه: هل أردت أن آكل معكم في هذا الفصح لحماً؟».[37]

تسمح لنا النصوص السابقة باستنتاج جانب من تعاليم الإبيونيين لنرى إن وجدت أية ركيزة لقول الكاتب بأن الآيات المكية الأولى تتطابق مع تعاليمهم، لكن قبل ذلك سنناقش مسألة هذا الإنجيل.

1) يقول إبفانيوس إن ‹إنجيل الإبيونيين› المستعمل من قِبَل طائفة الإبيونيين "اليهودية-المسيحية"، هو نسخة مختصرة ومشوهة من إنجيل متَّى.

2) رغم أن إبيفانيوس يطلق عليه اسم ‹إنجيل العبرانيين› و‹الإنجيل العبري› إلا أن رأيه في هذه المسألة جانب الصواب حيث عثر على مقاطع من الأخير. وبعد المقارنة بين الاثنين، عثر أهل الاختصاص على فروق جوهرية بينه وبين ‹إنجيل العبرانيين› من جهة وبينه وبين الأناجيل المعتمدة من جهة أخرى. أما العنوان الأصلي لإنجيل الإبيونيين فهو غير معروف. كما ولا توجد أية إشارة إليه في الأدب الديني المسيحي الموسوم بأنه "الهرطقي"، وذلك يجعل المرجع الأساسي عنه ما أورده إبيفانيوس.

3) هناك إشارة عند بعض أباء الكنيسة ومنهم أورغنس وهيرونيموس إلى ‹الإنجيل برسم الإثنى عشر›، والذي يطلق عليه أحياناً اسم ‹إنجيل برسم الحواريين› لكنه مختلف تماماً عن ‹إنجيل الإبيونيين›.

4) هناك من أهل الاختصاص من يرفض القول بأن ‹إنجيل برسم الإثنى عشر› هو نفسه ‹إنجيل الإبيونيين› ويرى أنه هو إنجيل الطائفة السورية المعروفة باسم ‹الكوكيا›.

5) هناك نوع من التقارب مع إنجيل متى، لكن هناك أيضاً تطابق بين بعض مقاطعه وإنجيل لوقا، مثلاً فيما يتعلق بالتقرير عن يوحنا المعمدان وعن عمر يسوع المسيح.

أما تعاليم الإبيونيين، كما يمكن استقراؤها من المقاطع المسجلة أعلاه، فهي كما يلي:

1) يشير ‹إنجيل الإبيونيين› إلى يوحنا المعمدان وأفعاله وكذلك إلى تعميده للمسيح.
2) يبدأ ‹إنجيل الإبيونيين› بنشاط يوحنا المعمدان، ويضم قصتين عن العشاء 'الأخير' وكذلك عن قصص (آلام المسيح بين العشاء وموته) وعن قصة عيد الفصح، والتي لا يعرف عنها أي شيء.
3) تحوي بعض مقاطع ‹إنجيل الإبيونيين› تقريراً منسوباً إلى يسوع المسيح بصيغة المتحدِّث.
4) ينفي الإبيونيون الإيمان المسيحي عن الطبيعة الإلهية لولادة يسوع المسيح، ويختلفون معهم بهذا الخصوص عبر القول بأن ذلك تم عبر كبير الملائكة.
5) لا تعود طبيعة الابن في نظرهم إلى الطبيعة الإلهية لولادته، وإنما إلى الروح القدس الذي صاحبه عند التعميد.
6) يضم يسوع المسيح في ذاته وحدة الطبيعة السماوية التي حصلت إبان التعميد.
7) لا يتم ذكر الجراد عند الحديث عن غذاء يوحنا المعمدان وذلك يوحي بأن تلك الجماعة كانت نباتية.

لذا فإن استنتاجات الكاتب بأن الإبيونيين يقولون بأن يسوع المسيح فارق يسوع قبل الصلب (ص 21) وغيرها، لا يدعمها أي نص متوافر، وتكون بالتالي، وفي أحسن الأحوال، نتاج خلط نصوص متباينة المصدر، وإن لم نعثر في النصوص على ما عناه الكاتب.

كما أن القول بأن لغة ‹إنجيل الإبيونيين› آرامية غير صحيح،

وهناك اتفاق بين علماء المسيحية على ذلك إذ قدموا براهين لغوية لا داعي للغور فيها، ويمكن للمهتم التأكد من ذلك في المراجع المشار إليها في الحواشي. والأمر ذاته ينطبق على حُكم "أبو موسى الحريري" بأن إنجيل مَتّى آرامي، بينما يجمع أهل الاختصاص(38) على أنه يوناني. كما يتبين لنا أن تعاليم الإبيونيين تختلف بشكل جوهري عما ما ورد في القرآن وأهمها نفيهم طبيعة عيسى بن مريم البشرية وولادته العذرية كما ترد في القرآن. وبالإضافة إلى ذلك فإن القرآن لا يشير أبدا إلى عملية التعميد، ناهيك بالطبع عن تباين معنى الاسمين يسوع وعيسى.

من ناحية أخرى من غير الصحيح علمياً استغلال دلالة معنى الاسم: ‹الإبيونيون› أي الفقراء أو الأذلاء، للدخول في تحليلات لا نهاية لها، ومن ذلك أنه يشكل أرضية للآيات القرآنية المكية. فالتعاطف مع المساكين والفقراء هي من جوهر المشاعر الإنسانية التي يتشارك فيها البشر، كل البشر، ناهيك عن الأنبياء بالطبع.

ومن المفيد أن نذكر الكاتب والقارئ بأن كلمة ‹ءبيون› تعني، بالإضافة إلى ما سبق، (حزين).

لن نخوض هنا في اجتهادات بعض من كتب في الموضوع من أهل الاختصاص الأوروبيين لأن استنتاجاتهم مبنية على ما أرادوا قراءته في النصوص، والتي رأينا أنها لا تحوي كثيراً من التفصيلات. ويتبين من تلك النصوص وجود فروق كبيرة بين ما ورد في القرآن عن موضوع محدد في سيرة يسوع المسيح ونهايته المؤسية، ورديفه عند الإبيونيين. ونعتقد أننا تمكنا بذلك من إيضاح أن نظرية الكاتب، التي طرحها حقيقة غير قابلة للنقاش، حول ما رآه من تطابق بين ‹إنجيل العبرانيين/ الإنجيل بحسب العبرانيين›

من جهة، وبSين طبيعة نصرانية ورقة بن نوفل من جهة أخرى، لا تستند إلى أي أسس. فما دمنا لا نعرف أكثر مما وصلنا عن تلك الطائفة وعن إنجيل ورقة بن نوفل، تبقى مختلف الاجتهادات نظريات ليس إلا. وسنوضح لاحقاً أن الأمر اختلط على الكاتب اختلاطاً كبيراً، وأن الاختلافات أعمق بكثير من الظاهر.

سنفترض الآن أن الأمر اختلط على الكاتب وأن جهله بهذه المسألة هو ما جعله يمزج، بشكل غير معقول، بين (إنجيل الإبيونيين) هذا وبين (إنجيل العبرانيين). لذا، سنقوم مرة ثانية بتقديم ترجمتنا للمقاطع المعروفة منه مما يسمح بتتبع تعاليم أصحابه، وتمييزه من (إنجيل الإبيونيين). أما الترجمة العربية فهي كما يأتي:

إنجيل العبرانيين

1) هذا ما هو مسجل في إنجيل العبرانيين «عندما أراد المسيح أن يأتي إلى الناس على الأرض، انتقى أبونا الرب قوة هائلة في السماء اسمها ميكائيل، وعهد إليه رعاية المسيح. وجاءت تلك القوة إلى الأرض وصار يطلق عليها اسم مريم،[39] ومكث المسيح سبعة أشهر في جوفها».

2) ووفق الإنجيل المسجل باللغة العبرية الذي يقرؤه النصيريون،[40] فإنه العمدة في نزول مجمل مصدر الروح القدس . . . كما نجد أيضاً في هذا الإنجيل المشار إليه آنفاً، ما يلي: «وقد حصل أنه عندما كان السيد يخرج من الماء،[41] أن كل نبع الروح القدس صعد وسَكَنَ عليه،[42] وتحدث إليه وقال: يا بُني، إني انتظر كل الأنبياء فيك، وأن تأتي وأن أسكن فيك.[43] فأنت سكينتي؛[44]

أنت ابني البكر،[45] الذي سيحكم إلى الأبد.[46]

3) ولكن فيما إذا قَبِلَ أي شخص إنجيل العبرانيين - فهذا ما يقوله المخلِّص: «وأمسَكَت على الفور أمي، الروح القدس،[47] بشعري وأخذتني بعيداً إلى جبل طابور العظيم في حجمه.[48]

4 أ) كما يوجد في إنجيل العبرانيين «من يُدهَش، سيصل إلى التحكم؛ ومن يصل إلى التحكم سيسكن».

4 ب) وبهذه الكلمات سيكونون متساوين[49] «ومن يبحث لن يهدأ حتى يعثر؛ ولكن من عثر، سيدهش، ومن دهش، سيصل إلى الحكم، ولكن من يسيطر سيتحكم».

5) ووفق ما قرأناه في الإنجيل العبري، قال السيد لتلاميذه «وإياكم أن تكونوا فرحين عندما لا تنظرون إلى أخوتكم في محبة».[50]

6) ووفق الإنجيل بحسب العبريين، والذي اعتاد النصيريون قراءته، يذكر أن إحدى أكبر الخطايا «ذلك الذي يجلب الضيق على روح أخيه».[51]

7) والإنجيل، المسمى ‹بحسب العبريين› والذي تمت ترجمته من قبلي إلى اليونانية واللاتينية،[52] والذي استعمله أورغنس بشكل مكثف، يذكر أنه بعد صعود السيد «وعندما قام السيد بإعطاء خرقة الكتان إلى خادم القسيس، توجه إلى يعقوب[53] وظهر له.[54] والمسألة أن يعقوب كان أقسم ألا يمس الخبز أو أي غذاء آخر قبل أن يشرب كأس الرب،[55] وقبل أن يرى قيام الميت. وبعد ذلك بقليل قال السيد: أحضروا طاولة وخبزاً! ويضاف إلى ذلك فوراً: وأخذ الخبز وباركه وكسره وقدمه[56] إلى يعقوب العادل وقال له: يا أخي، كل خبزك، فابن الإنسان قد صعد من الموت».[57]

يمكننا الآن مباشرة تحليل الرسالة التي يحويها ‹إنجيل العبرانيين› بعيداً عن أية إثارة مفتعلة، حيث يمكن للقارئ مقارنة محتوياته المسرودة أعلاه، بما سجله الكاتب عنه، وسنبدأ بتلخيصها في نقاط على النحو التالي:

1) اسمه: الإنجيل العبراني؟ إنجيل العبرانيين؟ إنجيل بحسب العبرانيين؟
2) تستخدمه طائفة النصارى؟ النصيريون؟ النذريون؟[58]
3) عندما تقرر قدوم يسوع المسيح إلى الأرض، اختار الخالق قوة جبارة في السماء اسمها ميكائيل تبنى رعاية يسوع.
4) نزلت هذه القوة إلى الأرض وصار اسمها مريم.
5) مكث يسوع المسيح سبعة أشهر في رحمها.

بذلك يتبين، على ما نرى، أن ما يرد في القرآن بخصوص موضوعات المقاطع الواردة أعلاه، يختلف بشكل جوهري، عما هو موجود في ‹إنجيل العبرانيين›. ولا تعطينا المقاطع المتوافرة من هذا الإنجيل أية معلومات أخرى فيما يتعلق بموضوع بحثنا هذا، لكن من الواضح أنه لا يمكن أن يكون ‹الإنجيل بحسب العبريين› الذي اعتقد المؤلف أنه تمكن من إثبات أنه كان لدى ورقة بن نوفل.

بذلك نكون قد أوضحنا، كما نأمل، خطأ الأساس الذي اعتمده الباحث، الأمر الذي سيجعل كل استنتاجاته المبنية عليه غير صحيحة.

ننتقل الآن إلى مسألة ‹إنجيل مَتّى› الذي يرى الكاتب، بكل ثقة، أنه هو الإنجيل الذي يشير إليه القرآن، وإلى ما اعتقد الكاتب أنه عثر عليه من تشابه في قصص يسوع المسيح وعيسى بن مريم. هنا سنركز على نقطة واحدة فقط هي مقارنة ما يرد عن عيسى بن مريم وأمه

في القرآن، بما يحويه إنجيل مَتّى عن يسوع، المعرف بأنه هو المسيح، لنرى إن كان هناك أي تشابه بين الطرفين.

ينقل القرآن المعلومات التالية عن مريم وأمها:

القرآن الكريم	إنجيل متى
1) غير متزوجة.	زوجها من سلالة داود – إنجيل متى (1: 16).
2) مريم كانت أخت هارون.	–
3) مريم كانت من الصديقين.	–
4) امرأة عمران نذرت ابنتها مريم لله.	–
5) الله اصطفى مريم على نساء العلمين.	–
6) أحصنت فرجها.	– كانت عذراء.[60]
7) مريم آية، أي معجزة.	–
8) انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً.[61]	– الولادة[62] في بيت لحم (2: 1)[63]
9) حملت بعيسى بكلمة من الله.	– حبلت من الروح القدس.
10) قال اليهود على مريم بهتاناً عظيماً.	–
11) لم يقربها بشر.	كانت متزوجة من يوسف بن يعقوب (1: 16)
12) عُبِدَت، إلى جانب عيسى، إلهة.	–
13) عيسى بن مريم تكلم في المهد مع أهل مريم.	–

بهذا يتبين لنا اختلاف كبير في المسألة. فالقرآن يورد معلومات مفصلة عن مريم - أم عيسى، ويعطيها دوراً مهماً، بينما لا نجد أي من ذلك عن يسوع المسيح، لا في إنجيل مَتّى ولا في أية مقاطع أخرى من العهد الجديد.

الآن نود الانتقال إلى نقطة رئيس أخرى وهي مقارنة المعلومات الواردة في القرآن عن عيسى بن مريم بما يرد عن يسوع المسيح في مجمل العهد الجديد، لنرى إن كانت المقاربة الواردة في ص (127-129) من كتاب (قس ونبي)، صحيحة.

القرآن الكريم	العهد الجديد والأبوكريفا
1) اسمه عيسى (بن مريم).	- اسمه يسوع المسيح.[64]
2) القرآن لا يشير إلى أب لعيسى، وهو ابن مريم الوحيد.	- اسم أبيه يوسف (النجار/ ابن النجار) وشجرة النسب مسجلة في إنجيلي متى (1: 1-17) ولوقا (3: 23-38).
3) لا يشير القرآن إلى وجود أخوة وأخوات لعيسى.	- كان له أخوة [65] وأخوات - إنجيلا مرقس (3: 21، 6: 3) ويوحنا (7: 3-5). بعض أناجيل الأبوكريفا تسجل أسماء الأخوات وهن آسيا وليديا، مريم وسالومي.[66]
4) لا يشير القرآن إلى فترة نشاط عيسى ولا يربطه إطلاقاً بفلسطين.	- يسوع كان في فلسطين.

5) لا يشير القرآن إلى اسم أي من حوارييه أو عددهم.	- أسماء وعدد الحواريين مسجلة.
6) لا يشير القرآن إلى انحدار عيسى من داود.	- يسوع منحدر لجهة أبيه من سلالة داود ولأمه من سلالة هارون.
7) لا يشير القرآن إلى أي نشاط لعيسى.	- هناك نشاط مستمر لعيسى في الجليل والقدس.
8) لم يصلب ولم يقتل بأية طريقة أخرى.	- يسوع مات على الصليب.
9) ولد زكياً.	-
10) ولد مثل آدم من تراب.	-
11) كان يأتي المعجزات ويبرئ الأبرص ويحي الميت.	- هناك ذكر للمعجزات، لكن بولس الرسول يرفض ذلك.
12) كان رسولاً إلى بني إسرءيل - وليس لليهوذيين أو اليهود.	- نشط بين اليهوذيين أو اليهود.
13) كان من المقربين.	-
14) حواريوه كانوا يعرفون بالأنصار.	-
15) تكلم في المهد.	-
16) كان رسول.	- اعتبر خطأ بأنه نبي.
17) أعلن أنه سيأتي بعده رسول اسمه أحمد.	-
18) اعتبر خطأ بأنه الله أو ابن الله.	-

نعتقد أن هذه المقارنة المختصرة لشخصيتي عيسى بن مريم القرآنية ويسوع المسيح الإنجيلية، تظهر اختلافات جوهرية بين

روايات كل من القرآن والعهد الجديد والأبوكريفا، بما ينفي كل محتويات الفصل الخامس التي تنقل رأي الكاتب بعكس ذلك. إن التباين الهائل في المعلومات يدعم رأينا بأن المقصود شخصان مختلفان. فالقرآن يشير إلى عيسى بن مريم، أما العهد القديم فيتحدث عن يسوع المسيح بن يوسف النجار. وهذا ما يشرح، برأينا، قول القرآن بأنه (ما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم). أي أن الأمر اختلط على البعض الذين اعتقدوا أن المقصود الشخص نفسه. وما يدعم رأينا هذا أن القرآن يؤكد أن طرفاً من النصارى وافقوا على ما ورد في القرآن عن عيسى.

لن نذهب أبعد من ذلك، بحسبنا أن نقول إن الكاتب كان متسرعاً في أحكامه العامة على موضوع متشعب ومعقد يتطلب البحث فيه الانصياع اللامشروط لأصول البحث العلمي، والتجرد الكامل من الأحكام المسبقة، ناهيك عن ضرورة تفادي إتباع الهوى. ونرى أن بحثه المحموم عن دعم لآرائه المسبقة هو ما سبب تسرعه وبحثه عن الإثارة ومحاولة إجبار المراجع على البوح بمعلومات لا تحويها.

وحيث أن المعلومات القرآنية لا تتفق مع ما رآه الكاتب من رديف في أي من الأناجيل الأخرى: ‹إنجيل الإبيونيين وإنجيل العبرانيين/ الإنجيل العبراني› فمن الواضح خطأ استنتاجه حول المصدر وحول أن هدف التوحيد هو وحدة تلك الطوائف. كما وجب الأخذ بعين الاعتبار أن إنجيل مَتّى لم يكن مسجلاً بالآرامية. ووفق علم (نقد العهد الجديد) هناك قناعة بأنه سجل باليونانية أصلاً،[67] ويضاف إلى ذلك مصدر آخر يعرف بحرف (كيو) اللاتيني والمقصود هنا (مصدر)، لكن لا يعرف ما هو أو لغته.

كما يحوي هذا الإنجيل معلومات أخرى خارجية، ربما أتت من من أنطاكية.[68]

القاعدة الثالثة التي يقوم عليها تحليل الكاتب إذن تفتقد لأي دعم علمي متوازن وذلك يفقد أسس استنتاجاته أية مصداقية، رغم أنه طرحها كحقائق غير قابلة للنقاش.

***

العرب في العالم القديم

بعد أن انتهينا من استعراض مقولات "أبو موسى الحريري" عما "ادعى" أنه رآه من علاقة وثيقة بين كل إنجيل متَّى والإبيونيون وورقة بن نوفل والإسلام، واستنتاجاته التي وصلت إلى درجة الحسم بوجود تطابق، في بعض الأحيان، بين الأطراف تلك، وتمكنا، على ما نرى، من إثبات أنها جانبت الحقيقة تماماً، وأن قراءته لتلك العلاقة المزعومة التي أوردها في مؤلف (قِس ونبي) هي رغبات ليس إلا، ننتقل إلى مناقشة مقولات أوردها في مؤلفات أخرى كرّسها لمسألة العرب في العصور القديمة وعلاقاتهم بمحيطهم الثقافي-الحضاري وموقعهم في العالم القديم.

بعد الاستعراض المختصر لآراء الكاتب التي سنوردها

في الفقرات التالية، والتي لا تخلو من شعارات سياسية حماسية المضمون حول أصل العروبة، يمكن الانتقال للبحث في أصل معنى الكلمة (عرب)[69] كما وردت في النصوص القديمة وسنناقش أيضاً بعض الآراء الأخرى التي أوردها الكاتب في مؤلفه: ‹أعربي هو›، ونبحث في بعض استنتاجاته التي دعمها بالكثير من المقتطفات من كتابات الإخباريين العرب. وسنورد تالياً مقطعاً مطولاً من كتاباته، لنمكن القارئ من تعرفها.

يقول الكاتب "أبو موسى الحريري" في الصفحة (145) من مؤلفه الآتي: «. . . فلا العروبة العاربة نشأت في اليمن وانتسبت إلى قحطان، ولا هي أيضاً "زحفت" من اليمن إلى الصحراء، ولا العروبة المستعربة أخذت عروبتها من القحطانيين، ولا هي تنتسب إلى الصحراء». . .

وكذلك: «العروبة الحقيقية . . . أتت من الشمال . . . والعداء بين العرب العاربة والعرب المستعربة، لم يكن عداءً بين يمنيين وقيسيين، أو بين قحطانيين وعدنانيين، بل هو عداوة بين بداوة وحضارة». و: «يبدو واضحا للعيان أن الإسلام تبرأ من كل أنواع العروبة، فلا هو من العروبة الخالصة . . . ولا هو استمرأ العروبة المستعربة، التي "هجرها" وخرج من مواطنها، وقاتلها في عقر دارها . . . ثم قاتل العروبة الصريحة نفسه» . . .

وغير ذلك: «استطاع العرب . . . أن يلجوا العالم من أبواب بني آرام. وهكذا أيضاً، فلا يشك باحث في الأصل المسيحي للخط العربي» ص (186).

والتالي أيضاً: «فالعروبة، إذاً، لغة وشعباً وديناً، هي أساساً نصرانية، غربية فُرَاتيَّة، وشمالية، مطعمة بحرف نبطي، وبمعان

سريانية غربية آرامية» ص (196).

ثم: «لقد وقف النبي من العروبة موقفاً عدائياً، شدد عزيمته فيه وعيه بعدم انتمائه إليها» ص (210).

وكذلك: «كانت العروبة حيث نشأت في 'غربي الفرات'، مع الآراميين، ثم مع المناذرة والغساسنة، في الحيرة والأنبار، ثم في جبل حوران ومختلف بلاد الشام، تتصف بـ'الحضارة'، وتدين بالعقيدة المسيحية، وتحمل معها العلم والفكر، وتتميز بقلمها المشتق مباشرة من القلم السرياني، وتكوّن 'لغة' سميّت 'غربية' أو 'عربية' باسم المواقع الجغرافية للناطقين بها . . . ثم 'زحفت' اللغة مع بعض الناطقين بها صوب الجنوب، إلى الجزيرة الصحراوية، حيث مكة والحجاز، وتكلمتها عشائر البادية ودانوا بعقيدتها التي حملها أصحابها إليها» . . .

وأيضاً التالي: «وفي البادية، مع البدو والأعراب، 'تخلفت' اللغة عما كانت عليه في منابعها الأصلية، وتوقفت 'الحضارة' التي كانت تحملها . . .».

وهذا يوصله لاستنتاج مفاده: «. . . لقد كانت 'العروبة' إذن في المسيحية 'حضارة'، وعند مجيء الإسلام 'بداوة'» . . . «أللهم يبقى واحدة. إذا كانت العروبة حنيناً إلى البداوة وحياة الطفولة البدائية، فالعالم كله عرب. أما إذا كانت العروبة نمط حياة دائم، فليس من إنسان واحد يطيب له العيش في حماها. والذين استمرأوا الجوع والبؤس وجدب الصحراء يحق لهم وحدهم الافتخار بعروبتهم . . .».

نقول أولاً: نحن لا نشك في وجود مشكلة في تعرف أصول القلم العربي الحالي حيث يسود رأي بأنه يعود في أصله إلى ما

يعرف بالكوفي، نسبة إلى مدينة الكوفة بالعراق، وإلى الخط النسخي الحجازي. وهناك نظريات عديدة حول المسألة ومنها التي سجلها الكاتب، أي القائلة بأنه شمالي. وهناك رأي تخصصي ثالث يرى أن أصل الخط العربي جاء من سيناء.[70] لكن كل الآراء، بما في ذلك تلك التي فضلها الكاتب واعتبرها حقيقة غير قابلة للنقاش، نظريات تحتمل التعديل الجزئي أو الكلي، وفق تطور التنقيبات الأثرية.

فعلى سبيل المثال، وجد في الماضي رأي بذهب إلى أن أهل الساحل الشامي الجنوبي، المعرّف خطأً بأنه فينيقي، هم من ابتدع الأبجدية. لكن التنقيبات الأثرية اللاحقة أوجبت تعديل هذا الرأي حيث عثر على واحدة أقدم منها في أوغاريت، أي رأس الشمرا الواقعة حالياً في شمالي الساحل الشامي. كما أظهرت التنقيبات الجارية في منطقة تل القاضي بسورية لوحات تحوي أبجدية مماثلة للسومرية التي عثر عليها في جنوبي العراق والتي هي أقدم من الأوغاريتية، وذلك قد يستدعي إعادة النظر في العديد من النظريات.

لنقل إذن إن مختلف الآراء المطروحة تبقى نظريات، حتى تلقى دعماً لها من نقوش أثرية "تحسم" الأمر. في الوقت نفسه، لا نرى في الأصول الشمالية أو النصرانية أو كليهما، أي عيب، بل إن ذلك يعكس انفتاح عرب الجزيرة على محيطهم وهو دليل هام على وحدة الإقليم وأقوامه. فلغة العرب المسجلة في المعاجم حوت، دون تمييز، ألفاظاً وردت في لغات أقوام جزيرة العرب، بما في ذلك الآرامية والعربية الجنوبية.

أما المشكل الثاني فمرتبط بمعنى الكلمة (عرب) حيث يورد الكاتب رأيه، المدعوم بمقتطفات كثيرة من كتابات الإخباريين

العرب، بأن المقصود (البدو). ثم يقول في ص (61) من مؤلفه ‹أعربي هو؟! بحث في عروبة الإسلام›: «نضطر في بحثنا إلى إطلاق لفظة ‹العرب› بمعناها المتداول اليوم، على مجمل سكان البلاد العربية، أو على سكان جزيرة العرب . . . إلا أن هذا المدلول لم يكن لها في الأصل، لا في أي معنى من معانيها، ولا في أية مرحلة من مراحل نشأتها. وليست الكلمة، في كل حال، من إنشاء من نسميهم اليوم ‹عرباً›. إنها في أصلها اللغوي، من مخترعات الآراميين الساكنين شرقي الفرات، وقد أطلقوها على سكان غربي الفرات، بمعنى ‹الغربيين›. . . فلفظة ‹عرب› تعني ‹غرب› في أصلها الآرامي، ومن الآرامية انتقلت إلى العبرانية والبابلية والسريانية . . . ومهما يكن من أمر ‹العروبة› فهي لا تعني اسم علم لشعب ذي عرق أو اثنية تسمى عربية».

لن نخوض في بحث لغوي مطول عن أصل الكلمة وكيفية ورودها في النقوش القديمة العائدة لممالك المشرق العربي، لأن مقالنا هذا موجه إلى أوسع دائرة ممكنة من القراء. فالتفقه اللغوي واستعراض المعلومات عن الموضوع، قد يثبت سعة معارف واطلاعاً، لكنه سيضيع المقصود، ويقود إلى ارتباكات في ذهن القارئ. ويضاف إلى ذلك محدودية هدف البحث، عدا عن أننا سنعود إلى هذا الموضوع في مؤلف منفصل. لذا، لنبدأ بالنقطة الأخيرة المسرودة أعلاه.

بعد أن نغفر للكاتب حماسه المصطنع للآراميين[71] ومحاولته القسرية جعلهم أصل شعوب الإقليم، نترك للمؤرخ والجغرافي الإغريقي سترابو[72] أن يقول لنا ما توافر حتى زمانه من معلومات عنهم، وعن علاقتهم بالعرب، شعباً أم قومية. وهنا نشدد على أن

النص التالي لاسْطْرابون هو محصلة لما كان سائداً في عالمه حتى ذلك العصر، أي القرن الأول قبل الميلاد، وليس فقط تسجيلاً لما كان سائداً في ذلك العهد.

يقول سترابو،[73] والتشديد من عندنا:

«. . . عندما يقول الشاعر: «أنا أتيت إلى الإثيوبيين والصيدانيين والإرمبيين،[74] فإن المؤرخين في حيرة من أمرهم، والأمر الأول يخص الصيدانيين وهل وجب تسميتهم بالشعب الذي قطن الخليج الفارسي الذي هو الموطن الأصلي للصيدانيين الذين يقطنون في قسمنا من العالم،[75] والذين كانوا مستعمرِين، تماماً مثل الصوريين،[76] وكذلك عن الأروادِيين الذين يقال عنهم في هذا الشق من عالمنا بأنهم كانوا مستعمرِين، أو أنه وجب تسميتهم بالصيدانيين؛ لكن التقصي عن الإرمبيين هو أكثر شكاً، وهل وجب الشك أن المقصود بهم "سكان الكهوف" حيث يجبر البعض البحث في أصل "إمبري" من "أرَن إمبَيَنِين"، أي الذين يذهبون للأرض، أو العرب. الآن، إن زينون[77] يغير النص ليكون على النحو التالي "وللصيدانيين والعرب"؛ لكن بوزايدونيوس[78] يغير النص بشكل بسيط ليضحي "والصيدانيون والأرامبيون"، انطلاقاً من حقيقة أن هذا هو الاسم الذي أطلقه الشاعر على العرب، وهو الاسم ذاته الذي استخدمه معاصروه. ويقول بوزايدونيوس أن العرب يتشكلون من ثلاث قبائل وأنهم متمركزون بطريقة متعاقبة، واحدة تلو

الأخرى، وذلك بما يظهر أنهم متماثلون بعضهم ببعض، وهو الأمر الذي جعل أسماؤهم متشابهة، اسم الأولى أرمنيون، والثانية الأراميون، والثالثة أرمبيون. وحيث أنه من الصحيح التوقع بأن العرب قسموا إلى ثلاثة قبائل وفق الاختلاف في المدى[79] الذي يزداد تباينه، فإنه من الصحيح أيضاً الافتراض بأنهم استخدموا أسماءاً متعددة بدلاً من اسم واحد. والخطأ ينال أيضاً أولئك الذين يكتبون إرمِني[80] لأن هذا الاسم ينطبق على الإثيوبيين. والشاعر يشير أيضاً إلى أريمي[81] حيث يرى بوزايدونيوس أن الشاعر لم يقصد بها مكاناً معيناً في سورية أو في قليقيا،[82] وإنما سورية تحديداً لأن سكان سورية آراميون، هذا رغم أن البعض يطلق عليهم أسم أريميين أو أريمي. إن التغير في الأسماء، وخاصة عند البرابرة،[83] لا حد له: فعلى سبيل المثال أطلقوا على "داريوس" اسم (داريسيس) وعلى "باريساتيس" اسم (فارسي) وعلى "أثارا" اسم (أتارغاتيس)، هذا رغم أن كتِسياس[84] أطلق عليها اسم (ديركيتو). وفيما يخص القسم السعيد من ‹بلاد العرب›، فمن الممكن للمرء أن يوظف الإسكندر[85] شاهداً حيث يقال إنه نوى تحويلها إلى مقره الملكي بعد عودته من الهند، لكن كافة مشاريعه انتهت بوفاته. لكن هذا كان أحدها في كافة الأحوال، أي لرؤية فيما لو كانوا سيستقبلونه طوعاً وفيما لو أنهم كانوا سيتفادون حرباً ضده؛ وحيث رأى أنهم لم يرسلوا مندوبين له قبل أو بعد،[86] بدأ بعمل

الاستعدادات للحرب وذلك وفق ما سجلته آنفاً في
هذا الكتاب».

ويقول الكاتب، أبو موسى الحريرى، في ص (72) من المؤلَّف، على لسان المؤرخ الإغريقي هِرُدوت، والتشديد منا: «. . . ولكنه يقول بأن البلاد التي تقع ما بين دجلة والفرات هي بلاد حضارة وأرض خصب، لم تلزمها العروبة بشيء، إلا إذا حدث غزو من الصحراء بدافع ما» . . . واقع الأمر أن ما كتبه المؤلف، على لسان هِرُدوت غير صحيح إطلاقاً، ولا يرد ذلك الرأي، أو شبيه له، لا في ذلك القسم من المؤلف، ولا في أي مقطع آخر من كتابه. ففي ذلك المقطع يتحدث هِرُدوت فقط عن طبيعة التربة. لذا كان الأحرى بالكاتب أن يلتزم بذكر الحقيقة ويترك أبو التاريخ اليوناني مع مشاكله المستمرة مع مؤرخي اليوم.

لكن ما قاله هِرُدوت[87] فعلاً عن العرب وبلاد العرب هو الآتي:

«ويحصل العرب[88] على البخور كما أوضحت آنفاً. ومن أجل استخراج السَّنا،[89] فإنهم يقومون بتغطية مختلف أنحاء أجسادهم، باستثناء العينين، بجلد الثور وغيره. وتنمو السَّنا في بحيرة ضحلة وينمو فيها وحولها مخلوقات مجنحة تشبه الوطاويط تزعق بقوة وتقاوم بعنف. وإذا أراد المرء جمع السَّنا فعليه أن يبعدها عن العينين».[90]

وقال أيضاً:

«أما إنتاج الصمغ الذي يسميه الإغريق لِدانون والعرب لَدَنُون[91] فهو أغرب من ذلك. ورائحته

عطرة للغاية، لكن لا يوجد أي شيء ذو رائحة أسوأ من النبتة التي يستخرج منها. والسبب هو أنها توجد في لحي الماعز وعلى شكل شجرة الصمغ. وهو يستخدم لعمل الكثير من العطور، ولا يستخدمه بخوراً أياً كان أكثر من العرب».[92]

وكذلك:

«. . . ولا يوجد هناك من يحترم العهد أكثر من العرب. وهذه هي طريقة قطعه: يقف رجل بين الطرفين الذين يعطيا الأمان ثم يستخدم حجر حاد لعمل جرح قرب الإبهام في راحة كف طرفي العهد ويأخذ قطعة من قماش من ملبس الطرفين ويلطخ سبعة أحجار موضوعة بين الطرفين بالدم مردداً أسماء ديونيسوس[93] السماوات[94] وأفروديت. وعندما ينتهي من ذلك، يقوم الطرف الذي منح الأمان بتقديم الغريب أو بني ملته إذا كان منهم، إلى أصدقائه الذين يعتبرون أنفسهم ملتزمين بالعهد).[95]

هذا بالضبط ما قاله هِرُدوت عن العرب يا أبا موسى الحريري، ونلاحظ أن كتابات هِرُدوت لا تخلوا من الإعجاب ببلاد العرب وإطناباً لبعض تقاليد سكانها.

لنتحول الآن إلى الجغرافي اليوناني سترابو الذي ينقل الكاتب على لسانه القول الآتي في الصفحات (73، 74، و75): «ويسمى سترابون جملة دول وممالك عرّف عنها بأسمائها فقط دون أن يعتبرها أو يصفها بأنها ‹عربية›» . . .

كما يقول: «وهكذا تشمل العروبة، في الأدب اليوناني والروماني،

كل بادية . . . [و] يتضح مما سبق بأن لفظة ‹عرب› ومشتقاتها لا تعني، في الحضارات القديمة، عرقاً أو جنساً لشعب معيّن، أو لأرض خاصة. ‹العرب› صفة لشعب يسكن غربي الفرات ويعيش في البادية، أو يعيش حياة بدوية، فقيرة، بدائية» . . .

وأيضاً: «وبما أن هذا النوع من الحياة يكون في البادية، وبالأخص في الصحارى المسماة اليوم ‹عربية›، أصبحت العروبة وكأنها اسم علم هؤلاء السكان، فيما الحقيقة، أن العروبة، في معناها الأولي والأصيل، هي صفة هؤلاء الشعوب الذين يعيشون غربي الفرات، في حياة بدوية بدائية. ثم أصبح الاسم يدل على كل سكان البادية».

هنا لابد من القول إن الكاتب نقل آراءه هو، وليس ما سجله الكتاب الإغريق. وبدلاً من أن ندخل في نقاش عقيم حول نقله غير الأمين لتلك الكتابات، سنترك للمؤرخين الإغريق أن يحسموا الأمر مرة أخرى وذلك باستعراض بعض ما سجلوه بخصوص هذه النقاط.

يقول سترابو تحديداً، على سبيل المثال، لا الحصر التالي:

«. . . كما وجد هناك [في بلاد الإغريق – ز. م] في العصور القديمة عرب من الذين عبروا مع قَدْمُس».[96]

فهل من المعقول أن قَدْمُس[97] هذا، الذي ينظر الإغريق إليه على أنه علمهم الأبجدية، قد اصطحب معه في رحلته البحرية الخطرة بداة؟ نترك الإجابة للقارئ.

في الوقت نفسه، من الواضح أن الإغريق أشاروا، حتى في تلك المرحلة التاريخية المبكرة، إلى سكان المشرق العربي، بما في ذلك من يعرَفون خطأ باسم الفينيقيين،[98] بأنهم (بنو قدم) ذلك

أن الاسم (قَدْمُس) هو صيغة مؤغرقة للمفردة الكنعانية ‹قدم› بمعنى (شرق). أما الاستثناء فقد كان العرب، اسم جنس، وليس بداة. ولو كان قصد المؤلف الإغريقي فعلاً البداة لوظف المفردة الصحيحة[99] التي استخدمها في مقاطع أخرى من مؤلفاته.

وقال سترابو أيضاً، نقلاً عن جغرافيين آخرين، التالي:

«...بعد ذكر كل هذا عن سكان الكهوف والإثيوبيين المجاورين لهم، يعود أرتميدوروس[100] إلى العرب. ويبدأ من بُوزَايدِيوم ليقدم وصفاً للعرب القاطنين في الخليج العربي[101] ويعيشون مقابل سكان الكهوف. وهو يقول أن بوزايديوم تقع أبعد من خليج لحيان،[102] وأنه يوجد بجوارها أيكة من النخيل تتوافر فيها كميات كبيرة من المياه، وهي تقدر بشكل كبير لأن كل الأراضي المجاورة لها قاحلة تماماً، ولأن ثمار النخيل ممتازة؛ كما ويقول أن المسؤول عن الغيضة رجل وامرأة يحتفظان بها كحق وراثي. وهم يلبسون الجلود ويعيشون من ثمار النخيل. وبسبب وجود الحيوانات الكاسرة، فإنهم يبنون أكواخاً على الأشجار ويعيشون هناك. ويصل المرء بعد ذلك إلى جزيرة الفقمة، والتي اكتسبت اسمها من حقيقة وجود هذا الحيوان فيها. وهناك قرب الجزيرة نتوء يمتد حتى صخرة النبطيين العرب وإلى بلاد فلسطين حيث يقوم المعينيون والجرهيون وكل الشعوب المجاورة بإرسال حمولاتهم من العطور. ثم يصل المرء إلى ساحل آخر كان يسمى مارانتيه حيث كان بعض سكانه بُدَاة بينما عمل قسم آخر في الزراعة، لكنه

يعرف الآن باسم شاطئ الغرينديين. وقد قام الأخيرون بعمل غادر حيث تمكنوا من القضاء على المارانتيين لأنهم هاجموهم عندما كانوا يحتفلون بعيد أربعي. وهم لم يقوموا بالقضاء على المحتفلين فحسب، وإنما عملوا على إبادة القبيلة بأكملها. ثم يصل المرء بعد ذلك إلى خليج لحيان وإلى بلاد النبطيين، وهي بلاد مأهولة بالكثير من السكان وغنية بالكلأ. وهم يقطنون أيضاً جزراً قريبة من الساحل. وكان النبطيون يعيشون بطريقة مسالمة، لكنهم قاموا بعد ذلك باستخدام الرماث لمهاجمة سفن المسافرين من مصر».[103]

بهذا يتبين، على ما نرى، أن اسْطرابون، كغيره من المؤرخين والجغرافيين الإغريق والرومان، لم يقصد بالمفردة (عربي) بداة، وإنما وظفها بمعنى "عرقي"، أي اسم جنس، للدلالة على الشعوب أو القبائل الوارد اسمها في النص السابق. ومن الجدير بالذكر أن الإغريق، كالرومان، استخدموا مفردتين مختلفتين[104] للدلالة على البداة الرحل وعلى (سكان الخيام) على التوالي. كما وظف سترابو المفردة (عرب) اسم جنس للدلالة على شعوب أخرى منها النبطيون، حيث يلاحظ قوله، والتشديد منا: «. . .وهناك قرب الجزيرة نتوء يمتد حتى صخرة النبطيين العرب وإلى بلاد فلسطين، حيث يقوم المعينيون والجرهيون وكل الشعوب المجاورة بإرسال حمولاتهم من العطور».

وللتحقق من أنه لم يقصد بذلك بداة شبه مستقرين أو رحل، وإنما شعب مستقر، أي أنه وظف المفردة اسم جنس، نقرأ أيضاً:

«والنبطيون شعب حساس للغاية، وهم يهتمون بالمِلكيَّة

حيث أنهم يعاقبون علانية أي شخص ينتقص منها، ويكيلون المديح لمن يتمكن من زيادتها. ونظراً لعدم امتلاكهم سوى عدد قليل من العبيد، فإنهم يُخدمون بشكل رئيسي من قبل أبناء ملتهم، أو من قبل بعضهم البعض، أو يخدم كل منهم نفسه بنفسه حيث تنال هذه العادة ملوكهم أيضاً. ويقومون بإعداد وجبات طعام لمجموعات تتكون من ثلاثة عشر شخصاً؛ ولديهم جاريتان للغناء في كل وليمة. ويقوم الملوك بعمل مبارزات كبيرة في الشرب، لكن لا يقوم أي منهم بشرب أكثر من أحد عشر قدحاً مستخدماً في كل مرة قدحاً ذهبياً مختلفاً. إن الملك ديمقراطي لدرجة أنه بالإضافة لقيامه بخدمة نفسه بنفسه، يقوم أيضاً بخدمة الآخرين عندما يحل دوره. كما أنه يقدم تقريراً عن حكمه في الاجتماع العام، ويقدم أحياناً أخرى تقريراً عن أسلوب حياته. ومنازلهم مكلفة للغاية لأنها مبنية من حجارة، ولكنها لا تضم أسواراً بسبب سيادة السلام عندهم. وتتوافر في معظم بلادهم الفاكهة، باستثناء الزيتون حيث يستخدمون زيت السمسم بدلاً من ذلك. خرافهم ذوات صوف أبيض والثيران كبيرة الحجم، لكن بلادهم لا تحوي أية خيول.(105) وتقوم الجمال بتأدية المهام بدلاً من الخيول. وهم يتحركون دون أردية،(106) باستثناء مِنطقة يشدونها حول الخاصرة، ويرتدون صنادل، وهذا يسري أيضاً على الملوك، غير أن لونها أرجواني. وهناك بعض المواد

التي تستورد بشكل كامل من أقاليم أخرى، وبعضها لا يستورد مطلقاً، خاصة ما يعتبر انتاجاً محلياً مثل الذهب والفضة ومعظم العطور، بينما لا تنتج بلادهم النحاس والحديد، وكذلك الملابس الأرجوانية والمَيعَة والزعفران والكوستاريا والأعمال المزينة بنقوش نافرة واللوحات والتماثيل. إنهم يمنحون موتاهم نفس الاحترام الذي يعطونه للرَوَث، وذلك وفق قول الشاعر هيراقليطس «الأجسام الميتة مؤهلة أكثر للطرد من الموتى»؛ ولذا فإنهم يدفنون حتى ملوكهم قرب تلال الروث. وهم يعبدون الشمس ويبنون مذابح على أسطح منازلهم حيث يسكبونها يومياً ويحرقون اللبان لها».(107)

ويضيف، في مقطع آخر:

«. . . لكن الآن وقد استعرضنا هذه المسائل، نعود لنقدم تقريراً عن مناطق أخرى لم نصفها من آسيا، ونعني بذلك (بلاد العرب).(108) تقع هذه البلاد بين سورية ومصر، وهي مقسمة بين أقوام كثيرة ذوات طباع متباينة. أما الجزء الشرقي(109) فمأهول من قبل العرب الذين يسمون نبطيين، والذين يحكمون بلاداً تراوح طبيعتها ما بين صحراء وجافة، هذا رغم خصوبة تربة بعض أقاليمها. ويتبع النبطيون أسلوب حياة قائم على النهب لأن بعض المناطق المجاورة لبلادهم تستعصي على الاحتلال عبر الحرب. وحيث أنها وكما يقال، جافة، قام السكان بحفر آبار على

مسافات مريحة، لكنهم أخفوا مواقعها عن الشعوب الأخرى حتى يتمكنوا من الانسحاب إليها فراراً من أي خطر. ولأنهم الوحيدون الذين لهم دراية بموقع هذه الآبار، فإنهم يفتحونها ويستسقون منها. وانطلاقاً من جهل الأقوام الأخرى التي تلاحقهم بمواقع الآبار، فإنها لا تتمكن من العودة بسلامة إلى أوطانها إلا بصعوبة كبيرة وبعد معاناة الكثير من المصاعب، أو أنها تُباد بسبب العطش. وحيث أن هذه الأقاليم منيعة على أي احتلال، فإن العرب الذين يعيشون فيها لم يتعرضوا إلى أي استعباد. وأكثر من هذا، فإنهم لا يقبلون أي حاكم عليهم ينتمي لأقوام أخرى، ومازالوا يحافظون على استقلالهم ضد أي تدخل خارجي. لذا لم يكن بمقدور لا الآشوريين القدامى ولا الماديين ولا الفرس ولا حتى المقدونيين استعبادهم. ورغم أنهم جردوا قوات كثيرة ضدهم، إلا أنه لم يتمكن أي منهم من تحقيق أهدافه».[110]

كما وظف المؤرخ الإغريقي ديودور الصقلي المفردة بالمعنى ذاته،[111] أي للدلالة على عرق معين، وليس بمعنى بدو. وهنا نقرأ التالي:

«. . ويقطن هذا الساحل العرب المعروفون باسم ثمود. ويقع على الساحل خليج ذو حجم معتبر . .».[112]

وقال أيضاً:

«. . . ويلي هذا القوم شعب كرب، ثم السبئيون الذين هم أكبر قبائل العرب عدداً. وهم يقطنون ذلك الإقليم

من 'بلاد العرب' المسمى ‹العربية السعيدة› والتي تنتج معظم الأشياء التي نعتبرها ثمينة. كما أنها تحتضن قطعاناً من شتى أصناف الحيوانات، وبكميات تفوق أي تصور. وتعم كل نواحي الإقليم الروائح الزكية لأن كل النباتات المتميزة بعطرها تنمو هناك بشكل دائم. كما تنمو على طول الشاطئ نبتة البلسم والسِّنة وعشب آخر ذو طبيعة متميزة. وهذا العشب سار للعين عندما يكون طازجاً، لكنه يتلاشى فجأة فيما لو ترك لبعض الوقت. وهناك في الأقاليم الداخلية من البلاد غابات كثيفة تحوي أشجاراً ضخمة تنتج البخور واللبان، وكذلك النخيل والقرفة وشتى الأصناف التي تنتج رحيقاً مماثلاً في حلاوته. ونظراً لعددها الهائل وثرائها الأريجي الاستثنائي، فمن المستحيل تعداد مميزات كل منها وطبيعتها. ويبدو الأريج كأنه شيء إلهي وأعظم من أن تصفه قوة اللغة لأنه ينفذ إلى كل واحد ويحرك أحاسيسه. وفيما يخص المبحِرين على طول الساحل، ورغم أنهم يكونون بعيدين عن الإقليم، فإنهم لا يحرمون من المشاركة في هذه النوعية من المتعة ذلك أن الرائحة العطرة المنبعثة من أشجار اللبان وغيرها تخترق هواء البحر القريب عند هبوب الرياح في فصل الصيف بعيداً عن الشواطئ». (113)

وحتى يتبين أن المقصود بالسبئيين شعب مستقر ذو حضارة متقدمة، نستطرد في متابعة كتاباته ونقرأ أن:

«. . . عاصمة هذه القبيلة المسماة سبأ مبنية على جبل.

ويتعاقب على حكمها ملوك بشكل وراثي. ويقدم لهم السكان احتراماً تتجمع فيه الميزات مع العوائق. والسبب أنهم رغم ما يبدو من عيشهم في حياة راغدة، فإنهم يوجهون أوامر للجميع، لكن دون أن يحاسبوا على تصرفاتهم. لكنهم يعتبرون في الوقت نفسه غير محظوظين إطلاقاً لأنه من الممنوع عليهم شرعياً مغادرة قصورهم. وفي حالة فعلهم ذلك، يتم رجمهم بالحجارة من قبل السكان، وذلك عملاً بنبوءة إلهية قديمة.(114)

«ولا تتفوق هذه القبيلة من ناحية ثرائها وغلوها على العرب فحسب، وإنما على بقية البشر».(115)

بناء على ما أوردناه من مقتبسات تتبين هشاشة الأساس الذي ارتكز إليه الكاتب "أبو موسى الحريري" في حديثه عن العرب وأصل الكلمة ومفهومها عند الإغريق والرومان حيث عنوا بذلك اسم جنس. فعندما أرادوا الإشارة إلى العرب بصيغة بداة، قالوا ذلك بكلمات صريحة التعبير. فها هو ديودور الصقلي يقول، والتشديد من عندنا الآتي:

«. . . أما ذلك القسم الذي يقع عموما جنوبي 'بلاد العرب'، فيسمى السعيد، لكن الإقليم الداخلي مأهول من قبل مجموعات من العرب البداة الذين اختاروا العيش في الخيام. وهم يربون أعداد ضخمة من قطعان الحيوانات وينصبون خيمهم في مروج هائلة المساحة. والإقليم الواقع بين هذا الإقليم وبين العربية السعيدة فهو، كما ذكرت آنفاً، صحراوي جاف. أما الأقاليم الواقعة غرباً فمنفصلة عن بعضها

بعضاً بصحار رملية بسعة الفضاء حيث وجب على المسافرين والمبحرين الاستعانة بالدب القطبي للاهتداء إلى طريقهم. ويضم الإقليم المتبقي من 'بلاد العرب' الواقع قرب سورية أعداداً كبيرة من مختلف المزارعين والتجار الذين يزودون عبر تجارتهم الفصلية بالبضائع المتوافرة لديهم معوضين بذلك ما نقص منها في القطرين الآخرين. أما ذلك القسم من 'بلاد العرب' المحاذي للمحيط فيقع في أعلى[116] العربية السعيدة. وانطلاقاً من حقيقة أنه مخترق من قبل الكثير من الأنهار الكبيرة، فإن العديد من أقاليمه تتحول إلى برك راكدة ومستنقعات واسعة. كما أنهم يستخدمون مياه الأخيرة التي تنساب إليها من الأنهار، وكذلك الأمطار التي تهطل في فصل الصيف لري أجزاء كبيرة من بلادهم، ويحصلون على غلتين سنوياً. كما ينتج الإقليم قطعاناً من الأفيال ومن الحيوانات الضخمة الأخرى. وتتميز تلك الحيوانات بشكل مزدوج الطبيعة وذلك أضفى عليها هيئة استثنائية. وبالإضافة إلى هذا كله، يزخر الإقليم بمختلف أصناف الحيوانات المدجنة، وبشكل خاص بالخراف ذوات الذنب الشحمي الكبير».[117]

والأمر ذاته ينطبق على كتابات المؤرخ أريان[118] الذي سجل التالي:

«. . . لكن الإسكندر قرر التقدم نحو مصر. وقد خضع له باقي إقليم سورية والبلاد المسماة فلسطين، هذا باستثناء الخِصي المسمى باطيس، الذي كان حاكماً لمدينة

غزة ورفض الخضوع للإسكندر. وقد كان الأخير قد ضم كثير من العرب الذين عملوا مرتزقة في جيشه، وكدّس، منذ بعض الوقت، مؤونة استعداداً لحصار طويل. وانطلاقاً من اعتقاده بأن موقع المدينة سيمنع سقوطها، قرر عدم السماح للإسكندر بدخولها».(119)

كما استخدم المؤرخون الرومان المفردة (عرب) بالمعنى ذاته، أي اسم جنس للدلالة على مجموعة "إثنية" متميزة. فالمؤرخ الروماني زوسيم الذي كان مثل باقي زملاءه الإغريق والرومان، من المعادين للعرب، سجل في مؤلفه ‹التاريخ الجديد› التالي، والتشديد من عندنا:

«. . . وفي الحقيقة، عقب تعيين فيليب(120) لخلافة تميسيكلس، بدأ ولاء الجنود تجاه الإمبراطور بالتبخر تدريجياً لأن فيليب كان من مواطني 'بلاد العرب' - أمة لا قيمة لها(121) - ولأنه لم يحاول التطور للأفضل والاستفادة من الحظ الذي حالفه . . . ».(122)

نعتقد بأننا قدمنا إثباتات كافية توضح عدم صحة مقولات الكاتب التي قمنا باستعراضها، واكتشفنا أن «الحقيقة الصعبة» حقاً هي أنه لم يلتزم الدقة والأمانة العلمية لأنه وضع، في بعض الأحيان، أقوالاً على لسان المؤرخين لم ينطقوا بها. كما وجدنا أنه قام أحياناً بتحويل آرائه الخاصة إلى مقولات لبعض المؤرخين والجغرافيين.

لقد حصرنا بحثنا وتقصينا في موضوع تخصصنا وتمكنا، على ما نرى، من توضيح أن ركائز موضوعات الكاتب التي بحثناها تفتقر إلى التوازن العلمي المطلوب. لقد ارتكب الكاتب، طوعاً، مجموعة من الخطايا والأخطاء التي لا تغتفر في أي بحث يدّعي

التزام الحد الأدنى من العلمية والموضوعية. فمن جهة، رأينا أنه لم يلتزم مبدأ النقل الصحيح لما أورده من مقتطفات، وهذه خطية. ومن جهة أخرى، كان الكاتب محكوماً بأفكار مسبقة بَحَثَ عن دعائم لها في مراجعه. أي أنه وظف بعض المراجع بهدف إيصال القارئ إلى فكرته المسبقة بدلاً من أن يحاول الاقتراب من الحقيقة عبر توظيف كل الكتابات ذات العلاقة. وبينما نرى أنه استخدم مراجع أولية للوصول إلى نقطة معينة، نراه يلجأ إلى مراجع ثانوية عندما لا تتفق الأولى مع أحكامه المسبقة سائراً في ذلك على خطا كتابات مستشرقين عفّى عليها الزمن، خاصة بعد الاكتشافات الأثرية الكثيرة في المشرق العربي.

لقد وظف الكاتب، "أبو موسى الحريري" المؤلفات القديمة ليس لدعم آرائه فحسب، وإنما لحذف كل ما قد ينقض أحكامه المسبقة بما أفقد عمله البراءة العلمية التي لا غنى عنها في عمل من هذا الطراز. أما الموضوعات الأخرى التي تعامل معها الكاتب، وخاصة في مسألة تاريخية القرآن والأوضاع في مكة والمدينة، فهي ليست جديدة، وقد تعامل معها الإخباريون العرب منذ أكثر من عشرة قرون.

ومن ناحيتنا، قمنا، ضمن حدود هذا البحث المقتضب، بترك النصوص ذوات العلاقة لتقول لنا ما تحويه من معلومات دون أي تدخل من جانبنا، وهذا ما أجبرنا على إيراد مقتطفات مطولة. لكننا رأينا في ذلك فائدة لأنها، ورغم طول بعضها، توضح للقارئ غير المطلع بأننا تفادينا التدخل التعسفي في النصوص، ولم نحاول إجبارها على البوح بما لا تحويه من معلومات، بل تركناها تتحدث عن نفسها. ونقول أخيراً إننا حافظنا على التزامنا الحاسم الذي

اتبعناه في كل كتاباتنا، ألا وهو الابتعاد المطلق عن إقحام الخطاب السياسي في العلم. فنحن نرى أن للكتابات السياسية موقعاً آخراً، ووجب عدم خلطها بالعلم.

وهناك كلمة أخرى لابد من قولها قبل أن نختتم عملنا، وهي تتعلق بمنهجية البحث في تاريخ العرب القديم، وكيفية تقويمنا كتابات الإخباريين العرب التي تركوها لنا بخصوص فهمهم لتاريخ العرب. فنحن نرى أن الكتاب المحدثين، كما بعض الإخباريين العرب مثل ابن خلدون، يرفضون ما جاء في كتابات العرب القديمة، ومنها العائد إلى المسعودي وابن الأثير على سبيل المثال ويعتبرونها لغواً لا قيمة له. ورغم أنه غني عن القول بأننا لا ننظر إليها بقدسية، ولا نبرئ الإخباريين من الانحياز العاطفي، مع العرب، أو ضدهم، ناهيك عن تخطئتهم، لكننا نرفض هذه النظرة المتعالية والمتعجرفة تجاه تلك الكتابات، أو تحويلها إلى مادة للسخرية والتهكم، وهو الأسلوب المتبع من قبل "بحاثة" محدثين. لقد حفظت لنا كتابات بعض الإخباريين العرب العائدة إلى القرن الثالث عشر للميلاد أسماء ملوك عرب جنوبيين، بدت لنا غريبة وملفقة أو مختلقة، حتى جاء علم الآثار ليثبت أن لتلك الأسماء أرضية تاريخية، هذا بعد مرور حوالي خمسة عشر قرناً من الزمان عليها. فيا له من تقليد شفهي عريق تمكن من المحافظة على الذاكرة الجماعية لهذه الفترة الطويلة حقاً!

والأمر ذاته ينطبق على حسم بعض الإخباريين العرب بأن أصول القبائل الأمغازية (البربرية) في المغرب العربي تعود إلى قبائل يمنية عبرت جزيرة العرب ووصلت إلى المغرب الأقصى. ورغم أن كثيراً من المؤرخين المحدثين يرفضون هذا على أنه مخيلة تجاوزت كل

حدود ما قرروه هم من معقولية، لكن إذا أخذنا على سبيل المثال المقارنة الحديثة بين فن البناء اليمني من جهة والأمغازي من جهة أخرى، توضح أننا بحاجة إلى إعادة النظر في كثير من مقولات الإخباريين العرب حتى يتبين الخطأ من الصواب، وأن ابن خلدون لم يكن محقا تماماً في نقده اللاذع لتلك الكتابات.

إن هذه المهمة كبيرة ومعقدة وتحتاج إلى جهد جماعي من قبل متخصصين بالموضوع، ولا يمكنها أن تؤتي ثمارها عبر بحث واحد، وإنما ستكون نتيجة منطقية لأبحاث جادة مبرمجة. إن إنجاز هذه المهمة الصعبة حقاً يستدعي تأهيل جيل جديد من البحاثة العرب المتخصصين باللغات أو اللهجات العربية القديمة مثل الحميرية والسبئية والمعينية وغيرها، وكذلك في كافة اللغات واللهجات المحكية في وطننا العربي. كما أننا بحاجة ماسة إلى إعداد كادرات متخصصة في علوم أخرى مرتبطة بالمادة، ومن ذلك علم دراسة أصل الإنسان . . . إلخ. لكن الشرط الأول الذي يكفل النجاح لمثل هذا البرنامج، إن كتب له الولادة يوماً ما، فهو الإمساك بزمام المبادرة في هذا المجال وإخراجه من أيدي المستشرقين. فمن المعيب حقاً أننا كلما أردنا قراءة تاريخنا وتاريخ وطننا نجد أنفسنا مضطرين للعودة إلى كتاباتهم فقط.

كلمة أخيرة

نود أن نبدأ بالقول، ومنعا لأي التباس أو سوء فهم، مقصود أو غير ذلك، أننا لم ولا نهدف من عملنا التشكيك في هذا أو ذاك من الأديان. فتحليلنا يدخل ضمن منهجية قراءة التاريخ، ولا علاقة له بتقصي صحة هذا الدين أو ذاك أو خطأهما، أو وضع إيمان أية

الهوامش

1- وليس المسيحي (ز. م).

2- مثلا سورة المائدة (82) {ولتجدن أقربهم للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وانهم لا يستكبرون}.

3- السيرة النبوية لابن هشام. حققها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها: مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي. مطبعة مصطفى الباني الحلبي وأولاده بمصر، (1355 هـ/ 1936 م). ص (203).

4- نوظف هذه الشكل بدلاً من الصيغة 'إسرائيل' حتى نتفادى خلط التاريخ، أي قوم بني إسرءيل بالكيان الصهيوني.

5- انظر:
A Springer: Das Leben und die Lehre Mohammad .Berlin 1869. S 158-160.

6- انظر العهد الجديد، سفري رومة (15: 25-26) و غلاطيين (2: 1).

7- يعتبر من آباء الكنيسة. كل الاستشهادات مأخوذة من المرجع التالي (3 مجلدات):

Hennecke, Edgar: Neutestamentaliche Apokryphen in deutscher Ubersetzung. Hrsg. von Wilhelm Schneemelcher, I Band, Berlin 1961.

8- انظر إنجيل لوقا (6: 13).

9- انظر إنجيل لوقا (3: 23). انظر سفري التكوين (41: 46 وصموئيل الثاني 5: 4).

10- باللاتينية (Kapernaum)، انظر إنجيل مرقس (1: 21) وإنجيل لوقا (31.4) والمكان هو 'تل حوم' الواقع شمال غربي بحيرة طبرية في شمالي فلسطين المحتلة.

11- انظر إنجيل مرقس (1: 29)؛ إنجيل لوقا (4: 38).

12- انظر إنجيل مَتّى (4: 18).

13- انظر إنجيل مرقس (1: 16)؛ إنجيل مَتّى (4: 18).

14- وفق الترجمة التقليدية (الإسخريوطي) لكن الاسم ورد بصيغة النسب إلى ‹عسكر›، لذا نرى أن اجتهادنا صحيح. انظر إنجيل مَتّى (10: 2-4).

15- انظر إنجيل مَتّى (9:9).

16- انظر إنجيل مَتّى (10: 2،6)؛ إنجيلي مرقس (3، 14) ولوقا (6: 13).

17- انظر إنجيل مرقس (1: 4) إنجيل مَتّى (3: 1).

18- انظر إنجيل مَتّى (3: 7).

19- في النص الأصلي 'أورشليم'. انظر إنجيل مَتّى (3: 5) وإنجيل

مرقس (1: 5).

20- انظر إنجيل مَتّى (3: 4) إنجيل مرقس (1: 6).

21- انظر سفري الخروج (16: 31) والعدد (11: 8) من العهد القديم. وتطلق الترجمات التقليدية على 'الفطير' اسم 'قطائف' [كذا].

22- نرى أن الأصل "آرامي"، وهو 'حرد' المشهود أثرياً.

23- انظر إنجيل لوقا (1: 5).

24- انظر إنجيل لوقا (3: 2).

25- انظر إنجيلي مرقس (1: 4) ولوقا (3: 3).

26- انظر إنجيل لوقا (1: 5-18 و3: 2).

27- انظر إنجيل مَتّى (3: 5) وإنجيل مرقس (1: 5).

28- انظر إنجيل لوقا (3: 21).

29- انظر إنجيل لوقا (3: 21) وإنجيل متى (3: 13) وإنجيل مرقس (1: 9).

30- انظر إنجيل مَتّى (3: 16).

31- انظر إنجيل مرقس (1: 11).

32- انظر سفر المزامير (2: 7) من العهد القديم.

33- انظر إنجيل مَتّى (3: 17).

34- انظر إنجيل مَتّى (3: 14-15).

35- انظر إنجيل مَتّى (12: 47-50).

36- انظر إنجيل (يوحنا 3: 36).

37- انظر إنجيل مَتّى (26: 17-19) وإنجيل لوقا (22: 15).

38- لقد قصرنا اقتباساتنا واستشاراتنا في هذا العمل على مراجع مسيحية قياسية نشرتها الكنيسة.

39- في النص الأصلي (Maria). 40- أو 'النصارى'.

41- قارن إنجيل مَتّى (3: 13).

42- انظر سفر إشعيا (11: 2 و 61: 1).

43- انظر سفر يشوع بن سيراخ (24: 7).

44- انظر سفر مزامير (132: 14).

45- انظر أسفار المزامير (2: 7) والخروج (4: 22) وإرميا (31:9) وإنجيلي لوقا (3: 22) ومرقس (1: 7) وكولوسي (1: 15) وعبرانيين (1: 6).

46- انظر سفر المزامير (89: 29-30) وإنجيل لوقا (1: 33).

47- انظر إنجيلي مرقس (1: 12) ومَتّى (4: 1).

48- انظر إنجيل مَتّى (4: 8).

49- انظر إنجيلي مَتّى (7: 7) ولوقا (11: 9).

50- انظر إنجيل لوقا (15: 31).

51- انظر إنجيل مَتّى (18: 6).

52- يرى أهل الاختصاص الذين بحثوا في الموضوع بأن الترجمة تمت من القبطية، وليس من "العبرية" أو الآرامية.

53- شقيق يسوع المسيح.

54- انظر 1 كورنثوس (15: 7).

55- انظر إنجيل مرقس (14: 25).

56- انظر إنجيل مرقس (14: 22) 1 كورنثوس (11: 23-24).

57- انظر إنجيل مرقس (8: 31).

58- سنعود إلى هذه الطائفة في بحث منفصل بسبب الإسهاب الذي وجب التعامل معها، والتي تتجاوز موضوع بحثنا هذا.

59- ليس وفق معلومة مستقلة، ولكن قولبة لاهوتية مأخوذة من سفر

إشعيا (7: 14).

60- ولكن ليس وفق معلومة مستقلة، ولكن قولبة لاهوتية مأخوذة من العهد القديم.

61- إن قول الكاتب في ص (131) بأن «القرآن والنصارى يتبع مريم إلى حين دخولها الهيكل حيث اتخذت فيه مكاناً بعيداً عن الناظرين» غير صحيح إطلاقاً. فالقرآن لا يشير مطلقا إلى الهيكل - بالعلاقة مع مريم. القرآن يقول إن مريم انتبذت من أهلها مكانا شرقياً، لكن دون تحديده. لكن حيث أن الآية مكية والمخاطبين من أهل مكة، فمن الصحيح القول بأن الموضع المقصود كان إلى الشرق من مكة.

62- أناجيل مَتّى ومرقس ولوقا يذكرونها بالاسم، لكن إنجيل يوحنا يتجاهل اسمها عند الإشارة إليها (2: 1، 3، 5، 12؛ 6: 42؛ 19: 25-26) ويسجل في (19: 25) بأن اسم أختها مريم.

63- انظر أناجيل مَتّى (1: 16-18) لوقا (1: 27) يوحنا (1: 45) وغيرها.

64- انظر إنجيلي مرقس (6: 3) ومَتّى (13: 55).

65- ويسميهم بالاسم وهم يعقوب ويسي ويوسف وسمعان - لكنهم لم يؤمنوا به: إنجيل يوحنا (7: 3-6). بل أن بولس الرسول نفسه التقى أحد أخوته. كما وتؤكد المراجع التاريخية اللاتينية صحة ذلك.

66- انظر أناجيل مَتّى (16: 14) مرقس (6: 15) لوقا (7: 39) ويوحنا (1:21).

67- اختصارا للمفردة الألمانية (Quelle).

68- انظر مادة إنجيل مَتّى في:

Die Bibel von A-Z: Das Aktuelle Lexikon zur Bibel .Slazburg.

69- في النقوش الآشورية (ء-ر-ي-ب-ي).

70- انظر مثلاً:

Hans Jensen: Die Schrift ,in Vergangenheit und Gegenwart .Berlin 1969.

71- من الأمور المعروفة أنه لم يعثر على أية آثار تفيد بوجود شعب آرامي، وتبقى هذه إحدى ألغار تاريخ الإقليم، آخذين بعين الاعتبار انتشار لغتهم المذهل في المشرق العربي وحقيقة أنها أضحت لغة التداول الرسمي بين دول الإقليم.

72- في المؤلفات موضوع المقال (اسْطرابون).

73- الاستشهادات مأخوذة من العمل التالي ذكره، والمسجل باللغة الإنجليزية إلى جانب النص اليوناني الأصلي:

The Geography of Strabo: Translated by H. L. Jones. Cambridge, Mass. & London 1982 reprint .LOEB CLASSICAL LIBRARY.

74- انظر (الأوديسا) لهومير، الأغنية الرابعة (84).

75- أي في صيدا بلبنان. 76- أي أهل صور.

77- فيلسوف إغريقي (490-430 ق م.).

78- فيلسوف ومؤرخ وجغرافي من أفاميا (قلعة المضيق) بالقطر السوري، وعاش في الأعوام (135-51 ق م.).

79- أي في خط العرض. 80- أي (السود).

81- انظر (الإلياذة 2:783).

82- يقع الإقليم ضمن حدود الجمهورية التركية.

83- عرف الإغريق كل الشعوب الأخرى بأنهم برابرة.

84- الطبيب الخاص للملك الفارسي أرتكركسس الثاني (حوالي 400 ق. م).

85- أي الإسكندر المقدوني.

86- المقصود الحملة ضد الهند.

87- الترجمة تعود إلينا، ومأخوذة من مؤلف:
Herodot: Das Geschichtswerk, Berlin und Weimar 1985.

88- المقصود بالعرب هنا، والإشارة إلى عرب ساحل البخور في حضرموت وظفار، سكان مستقرون، وليسوا بدواً رحلاً. فاستخراج البخور وتصنيعه وتخزينه وتحميله وتصديره...إلخ، يحتاج إلى حضارة مستقرة.

89- أي القرفة الصينية. 90- التاريخ (3:110).

91- في النص الأصلي (Ladanon) والأصح (لبنن – Labanon).

92- التاريخ (3:112).

93- هو إله الإخصاب والنبيذ، وبالعربية 'الوَين'، عند الإغريق، وهو 'باخوس' عند الرومان. وبالتأكيد أن بعض العرب لم تتعبد في العصور الأولى لذلك الإله الإغريقي. ويمكن شرح مقولة هِرُدوت هذه على أنها جزء من عصبية الإغريق الذين اعتبروا أنفسهم مركز العالم، وأن الآخرين أخذوا منهم كل شيء، حتى آلهتهم. وكذلك فعل الرومان بالإغريق حيث قالوا بأن آلهة الأخيرين هي رومانية وأنهم كانوا يعطونها أسماءً أخرى. وليس من السهل تحديد إله العرب هذا، لكن من الممكن أن المقصود هو ذو الخلصة.

94- أي (إله السموات). 95- التاريخ (3:8).

96- ‹الجغرافيا› (1:10،8).

97- ومن الجدير بالذكر أن الاسم قَدْمُس، وهو أغرقة واضحة للاسم (قدم) بمعنى (شرق) يشير، من وجهة نظر الإغريق، إلى

الشعوب التي قطنت إلى الشرق من بلادهم، أي إلى منطقة بلاد الشام، وليس إلى قبيلة أو مدينة معينة.

98- هذا التعريف لسكان الساحل الشامي إغريقي الأصل، ويعتقد أن المقصود به 'أرجواني'، أي على لون الصبغة التي كان ينتجها بعض سكان الساحل. كما عثر على نقود قديمة مسجل عليها بالإغريقية والكنعانية (فينيقيا) و (كنعان) بما أدى لدعم هذا الترادف. لكن كل النقوش الأثرية التي عثر عليها حتى الآن لا تقدم أي دعم لهذا الفهم، حيث أن سكان كل مدينة أطلقوا على أنفسهم صفة مدينتهم، أي: (صوريون)، (صيدونيون)، (أرواديون) وهكذا، ولم يشيروا إلى أنفسهم باسم جامع.

99- Nomadi.

100- جغرافي ورجل دولة يوناني عاش في القرن الأول قبل الميلاد..

101- المقصود هنا البحر الأحمر.

102- أي خليج العقبة الواقع على البحر الأحمر.

103- الجغرافيا (4:16، 18).

104- Nomadi Scenitae

105- هناك العديد من الكتابات العائدة إلى مؤرخين إغريق ورومان تتحدث عن استخدام النبطيين الخيول.

106- المقصود الرداء الروماني الطويل الذي يُشَد على الخاصرة.

107- ‹الجغرافيا› (4:16، 26).

108- في النص الأصلي دوماً (Arabia) والذي لا يوجد له رديف في اللغة العربية، لذا فقد سجلناه بصيغة ‹بلاد العرب›.

109- أي غربي جزيرة العرب وبالتالي شرقي بلاد الإغريق وروما.

110- ‹مكتبة التاريخ› (2:48).

111- الاستشهادات مأخوذة من العمل التالي ذكره، والمسجل باللغة الإنجليزية إلى جانب النص اليوناني الأصلي:

Diodorus Siculus, Translated by C. H. Oldfather. Cambridge, Mass. & London 1979 reprint .LOEB CLASSICAL LIBRARY.

112- (مكتبة التاريخ) (3:44).

113- (مكتبة التاريخ) (3: 46،1-5).

114- أظهرت النصوص الأثرية خطأ هذا الاعتقاد حيث كان ملوك سبأ يشاركون في النشاطات العامة.

115- (مكتبة التاريخ) (3:47).

116- أي جنوبي.

117- مكتبة التاريخ (2: 54).

118- انظر المؤلف التالي الذي يحوي بالإضافة إلى النص اليوناني، ترجمة بالألمانية.

Arrian: Der Alexanderzug. Griechisch und Deutsch von G .Wirth & O. von Hinueber. Berlin 1985.

119- (التقدم) (2: 25).

120- الإشارة هنا إلى الإمبراطور الروماني يوليوس فيلبوس (200-249 م) المعروف باسم (فيليب العربي).

121- يقول المؤرخ بَوَرْسُك «إن الادعاء السائد حول غياب الإجحاف في الإمبراطورية الرومانية ضد العرب هو من إنتاج خرافات العصر الحالي حيث يمكن رؤية كتّاب متنفذين من كيكرو وحتى زوسيم ينغمسون في تشهير لا مسؤول ولا مثيل له بالشعوب العربية».

انظر الصفحات (123-124) من مؤلفه التالي ذكره:

G. W. Bowersock: Roman Arabia. Harvard University Press, 1983.

122 - «التاريخ الجديد» (1:18).

123 - أي (Bible).

122- «التاريخ الجديد» (1:18).

123- أي (Bible).

122 - «التاريخ الجديد» (1:18).

123 - أي (Bible).

122 - "التاريخ الجديد" (1:18).

123 - أي (Bible).